



الفلسفة وعلاقتها الجدلية بالأيديولوجية والتاريخ ومفهوم النهاية التلازمية

Philosophy and its dialectical relationship with ideology, history, and the notion of an correlative end

بيدة عبد المالك

جامعة غارداية، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية

bida_atk@yahoo.fr

تاريخ القبول: 2021/06/05

تاريخ الاستلام: 2021/03/15

ملخص -

الاجتهادات الفكرية والفلسفية الحديثة والمعاصرة ، كثيرا ما وظفت مصطلحات و مفاهيم و تصورات: كالفلسفة - الايديولوجيا - التاريخ - الابوكاليبس - الاسكاتولوجيا الفكرية، أخرجتها من سياقاتها المعتادة، سواء من ناحية المفهوم السياقي واللغوي، او من جهة تموقعها، إزاء مفاهيم و قضايا أخرى. بحيث كانت تبدو في التوظيف الدارج والنحت المعتاد، بعيدة كل البعد عن بعضها البعض. او يُعتقد باستحالة وجود تماس أو تداخل بينها بيد أن الثراء التنظيري الحديث وخاصة مع ظهور التيارات الفلسفية النهضوية التنويرية من جهة، ومن جهة أخرى، التوظيف الايديولوجي للثقافية والسياسية، التي بينت بشكل مؤدج مدى التداخل و الارتباط الكبير من عدة جهات، بل متعدد الجهات، وخاصة مع ظهور نظريات جديدة في الفكر السياسي الفلسفي كفلسفة النهايات و مفاهيم الابوكاليبس. والإسكاتولوجيا الفلسفية، ونخص بالذكر نظريات نهاية التاريخ و نهاية الايديولوجيا والعلاقات التلازمية بينها.

الكلمات الدالة-

1 فلسفة؛ 2 تاريخ؛ 3 ايديولوجي؛ 4 ابوكاليبس؛ 5 نهاية تلازمية.

Abstract-

Modern and contemporary intellectual and philosophical diligence. It often used terms, concepts, and conceptions: such as philosophy - ideology - history - apocalypse - intellectual eschatology, which took them out of their usual contexts. whether in terms of the contextual and linguistic concept, or in terms of their location, by looking, other concepts and issues. So that it appeared in the usual employment and usual sculpture, far from each other. Or the impossibility of overlapping or contacting, in any way. However, the modern theoretical richness, especially with the emergence of the enlightening renaissance philosophical currents on the one hand, and on the other hand, the cultural and political ideological investments, which in an ideological manner demonstrated the extent of the great overlap and interconnection from several sides, and indeed multi-sides, especially with the emergence of new theories in political and philosophical thought. Such as the philosophy of endings, notions of the epochalps, and the philosophical eschatology. We specifically mention the theories of the end of history and the end of ideology and the correlative relations between them..

Key words-

philosophy ; history ; ideology ; apocalypse ; Correlation end.

1. - مقدمة

الفلسفة أو نظرية القيم هي بحث مستمر مستفيض، يتناول الوجود في ذاته ومظاهره. ومن آلياته التحليل العقلي والنظر المنطقي، أما غايته فإدراك الحقيقة منزهة عن أي لواحق أخرى. ومما هو ملاحظ أن الفلسفة في العصر الحديث قد ارتبطت بعدة مصطلحات ومفاهيم أفرزها منظور تنظيري مؤدج، ارتبط هذا المنظور بالسياسة والاقتصاد والثقافة والحضارة والعلوم والايديولوجيا والتاريخ. ونخص بالذكر المجالين الأخيرين، لما لهما من استعمالات وارتباطات وتوظيف مفاهيمي واصطلاحي تخرجهما في بعض

الاحيان عن سياقاتهما الاعتيادية. وخاصة في الفكر الفلسفي الامريكي الحديث والسياقات العامة الكبرى التي يصب فيها، كنهاية التاريخ، والأبوكاليبس الفلسفي والأيدولوجي والتاريخي، تمهيدا لمنظومات معينة مرتبطة بالعولة وإعادة الصياغة المفاهيمية للنظام العالمي الجيد ونهاية الأيدولوجية والتاريخ وفلسفة النهايات. والتاريخ هنا ليس الوقائع والحوادث الماضية التي انتهت وانقضت في السياق الزمني، وإنما التاريخ كأيدولوجية تنظيمية لتوجهات عالمية، أو التاريخ كروح فكرية أيدولوجية لتوجه مفاهيمي تتشابك فيه مختلف الميادين التي أشرنا إليها آنفا.

أ - الإشكالية: ماهي العلاقة التي تربط بين الفلسفة من جهة ،و التاريخ والايديولوجيا من جهة أخرى ؟و ماهي علاقة النهاية التلازمية التي تربط بينهم؟

ب - الفرضية: هناك علاقة وطيدة و وثيقة بين الفلسفة و التاريخ والايديولوجيا، خاصة على مستوى القراءة او التوظيف المفهومي الفلسفي علاوة على وجود علاقة تلازمية ،ضمنية و تبعية بينهم ، من ناحية نهاية القيمة و الوظيفة الفكرية و المفاهيمية.و خاصة في فلسفات النهايات الابوكاليبسية.

ج - أهمية الموضوع :

اولا: تضعنا هذه الاشكالية أمام الوقوف على أواصر الصلة بين الفلسفة والتاريخ والايديولوجيا.

ثانيا: الوقوف أمام التوظيف المفاهيمي الفلسفي لمختلف أبعاد وآفاق التاريخ والايديولوجيا.

ثالثا: التعرف على الإشكاليات الايبستيمولوجية التي تتماس و تتقاطع فيها الفلسفة من ناحية، والتاريخ و الايديولوجيا من ناحية أخرى.

رابعا: الإطلاع على مختلف النظريات الايديولوجية المختبئة من وراء مختلف القراءات الحديثة والكلاسيكية، و منه رسم الحدود بين العلمي و الايديولوجي .

خامسا: دراسة علاقة الفلسفة بمختلف أبعادها الايديولوجية والتاريخية، يجعلنا ندرك إمتداداتها المفهومية، فإذا كانت الفلسفة بالمعنى الهيجلي هي خلاصة عصرها، أوهي فلسفة متوارية عن الأنظار، أو هي روح العقل او اللوغوس في صورة أحداث و وقائع كرونولوجيا. فإنه لزاما يقتضي الحال، إستنتاجها وإجبارها على الجواب، حسب الإمكان المتاح.

سادسا :كشف اللثام عن مختلف صيغ العلاقات و خاصة الديالكتيكية وغير الجدلية بين التاريخ والفلسفة و الايديولوجيا، وإستعمالاتها في مختلف سياقات النظريات و خاصة الحديثة .

د -الدراسات السابقة :من خلال بحثنا وجدنا أهم الدراسات السابقة الآتي ذكرها:

بدر أحمد محمود، تفسير التاريخ من الفترة الكلاسيكية إلى الفترة المعاصرة، عالم الفكر، مجلة يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت المجلد 29، محور الفكر التاريخي، بتاريخ: 14 ابريل 2001.

برون فرانسوا، ايديولوجيا هذه الأيام ، تر، عبد الكريم شوطا، العدد، 3، مجلة فكر، ونقد، 1997.

الجابري محمد العابد، الشأن الانساني في عصر الخصخصة والعولمة، العدد 1، مجلة فكر ونقد، 1997.

شابو جان لوك، ايديولوجيا تشارع التاريخ، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد: 94 -95.

الهاني ادريس، من النبوءة والتاريخ - دراسة في القوانين التاريخية وإمكانية التنبؤ، مجلة الكلمة، عدد 3.

قوقام رشيد، مقال: التاريخ والعولمة أو الظاهرة العالمية، مجلة دراسات فلسفية، العدد: 08 قسم الفلسفة، جامعة الجزائر 02، 2012.

نصار ناصيف، الفلسفة في معركة الايديولوجية، ط2، دار الطليعة -بيروت 1986.

العروي عبد الله، مفهوم الايديولوجيا، ط8، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، 2012.

بيد أن غرابة وخصوصية هذا الاستعمال الاصطلاحي المذكور، تتحدد في طبيعة التوظيف السياسي، الايديولوجي، الفكري والفلسفي من طرف بعض المنظومات والنزعات، لتبرير مسلمة بشرية تخدم توجهات معينة.

أ - التاريخ والفلسفة والأيديولوجية:

يقول "أفلاطون" في محاوره الجمهورية: التقليد وجزاء الفضيلة - الكتاب العاشر «... ومن أغرب المشاهد منظر النفوس تختار نوع حياتها، فإنه مشهد غريب، مضحك مبك، وكان رائدها في اختيارها اختبارها السالف في الحياة...» «... ونحرص حرصا عظيما على استغلال العدالة مقرونة بالحكمة... (أفلاطون، دس، صفحة 353)

من المواقف المحزنة في حياة أفلاطون، اتهام أستاذه "سقراط" الحكيم، بإفساد عقول الشباب، ونشر الفكر الفاسد لدى الآثينيين، والتبعة القاسية المتمثلة في إصدار الحكم الجائر ضد سقراط وهو الحكم بالإعدام، بتجرع مادة سامة أودت بحياة أستاذه... فأندلف "أفلاطون" في دوامة من الحيرة وزوبعة من الأسئلة والتساؤلات والتي أقضت مضجعه. منها يلي:

كيف بالحكم الآثيني الذي يدعي بتحري العدالة والديمقراطية، يصدر حكما قاسيا في حق أحكم البشر وأصلحها؟؟ ألا يعني ذلك أن هناك إشكالية عظمى في تصور الآثينيين للحكم الراشد ومنظومة القيم والعدالة؟

ومن هنا دخل "أفلاطون" الى الفلسفة والفكر السياسي من أوسع الأبواب" وهكذا امتطى صهوة البحث والتحري الفلسفي عن الحقيقة في مختلف مجالات الحياة والوجود والقيم المعرفة. لذا وبسلاح الفلسفة وبنائها الفكري التنويري المعقلن، ومناهجها وآلياتها وصلت الإنسانية الى أعلى مستويات العلم والمعرفة والحضارة، وما زالت تمدنا بنورها، لتتفتح عقولنا وأفئدتنا على نوافذ المعرفة،

والكيفيات التي بواسطتها أصبح قادرين على تدبير شؤون حياتنا ومدينتنا في مختلف المجالات السياسية، الثقافية، الأخلاقية والقانونية.

تعتبر الفلسفة مفتاح المعرفة منذ بدايات الفكر البشري، وهي بحث مستمر ومستفيض متجدد باستمرار، عن طريق التأمل العقلي الشمولي الرصين والمتعمق والنظر المنطقي الممنهج والمنظم حول الوجود في ذاته ومظاهره، ومختلف تجلياته. ولهذا يعرفها "أرسطو طاليس" بأنها «البحث عن الموجود من حيث هو موجود» أي البحث عن العلة و الأسباب القصوى للموجودات. ويرى المفكر المصري "زكي نجيب محمود" أن الكثير من القراء لا يعلمون من الفلسفة إلا اسمها و يجهلون مضمونها رغم استعمالاتهم المتكرر لها ؟. وأن تاريخ الحياة المتحضرة لم يشهد يوما واحدا، أن كان للإنسان فيه علم أو فن أو عقيدة ولم يكن له الى جانب ذلك الفلسفة التي تكشف عن مبادئه الأولى، والتي كثيرا ما تخفي في لفائف الحياة الثقافية كما يحياها الناس (محمود زكي ، 1980 ، صفحة 196).

فلسفة النهايات أو خطاب النهاية في الفلسفة، يصنف ضمن مباحث ما يسمى بمصطلح "الأبوكاليبس" (الأبوكاليبس) الذي تتضمن مدلول الفناء ونهاية الوجود والعالم. ومما يلاحظ ان هناك تداخل وتشابك مفهومي ونسقي عميق ومتجذر بين خطاب النهايات في الفلسفة من جهة، وخطاب النهاية في التاريخ والايديولوجية من جهة اخرى. بيد أن التساؤل الذي يشدنا في هذا السياق: ماهي العلاقة التي تربط بين نهاية التاريخ ونهاية الايديولوجية والفلسفة؟ وماهي مكامن التداخل والترابط والتلازم فيما بينها؟ وما هي مبررات ذلك؟

إن العلاقة بين الفلسفة والتاريخ وعالم الأفكار علاقة وثيقة ووطيدة الى درجة ذوبان أحدهما في الآخر، لأن عالم الأفكار والبحث الفلسفي وحراكهما هو حراك للتاريخ في حد ذاته كتداخل الحليب والماء أو الروح بالجسد (حنفي ،

1987، صفحة 273) ، فمسيره الفلسفة وصيرورتها مندمجة ضمناً في كرونولوجيا التطور التاريخي.

إن علاقة الفلسفة والتاريخ قد يفهم من عدة أوجه متلازمة كتاريخ الفلسفة وفلسفة التاريخ فمدلول الأول هو تتبع التطور الفكر البشري ومحطاته وكرونولوجية تكوينه، أما المدلول الثاني، فمفاده فهم الآليات (حنفي ، 1987، صفحة 274) والسبل التي يسلكها التاريخ في تجلياته الروحية والفكرية، والروح التي تسري بداخله وتوجيهه عبر غايات أهداف حتمية معقنة.

ومهما يكن من الأمر، فإن غاية تاريخ الفكر الفلسفي، هو الاطلاع وتحليل الوقائع الحوادث والأحوال الانسانية في مختلف ميادين الحياة، بغض النظر عن الاختلاف في القراءات ومرجعياتها ومدى موضوعياتها، كتفسير التاريخ بمرجعية المادية الجدلية أو التاريخية أو الجدلية المثالية أو باعتبارها صراعاً من أجل نيل الاعتراف والسيادة (بوبر ، 1992، صفحة 154).

إن المتتبع للمسار الفلسفي للتاريخ يستكشف بأنه مجال مفتوح للصراع والتضارب بين مختلف النزعات والتيارات والمدارس الفكرية والايديولوجية، فالعلاقة بين الفلسفة والايديولوجية، متداخلة الى حد كبير في مختلف الأنساق التحليلية والبناءات الفكرية في هذا العصر (نصار، 1986، صفحة 07).

إن الايديولوجية تشتمل بصورة أو أخرى على مضمون فلسفي، وتتخذ موقفاً من كل اتجاه فلسفي تلقاه في صراعها من أجل تحقيق غاياتها، على الصعيد النظري والجدالي، والفلسفة تلعب بصورة أو بأخرى دوراً ايديولوجياً، وتتخذ موقفاً من التصورات الفكرية والمرجعية التي تقوم عليها الايديولوجيات المتصارعة. (نصار، 1986، صفحة 08)

إن صلة التضمن بين الفلسفة والايديولوجية والتاريخ جلية بذاتها وواضحة لا مرأى فيها ولا جدال، وبناء على هذه العلاقة الوثيقة، يتوقف موتها وحياتها، فعلاقة الفلسفة بالتاريخ حيوية كعلاقة السمك بالماء والكائن

الحي بالهواء، فارتباطها بالتاريخ هو منبع نموها وازدهارها وحياتها، اذا انفصلت عنه تموت وتضمحل وتفنئ. وعلى صعيد أوسع هناك نظرة ايديولوجية الى الفلسفة، ونظرة فلسفية لايديولوجيا (نصار ، 1986، صفحة 08)

إن حياة الفلسفة والايديولوجية مرهونة بالتاريخ وهي مرتبطة به، وهي تموت. - أي الفلسفة - عندما تكون خارج إطار التاريخ، فلقد تعين على الفلسفة أن تواجه وتجاوب عبر تاريخها الطويل، أنواعا من التفكير. ففي العصور القديمة كانت علاقتها الجدلية مع الفكر الأسطوري بأشكاله المختلفة وفي هذا العصر، يبدو أن المعركة الرئيسية هي مع الفكر الايديولوجي، فالفكر الايديولوجي يبسط سيادته وسيطرته على المجتمعات البشرية، من خلال التنظير السلطوي والأنظمة السياسية. (نصار ، 1986، صفحة 08 و 09)

فحياة الفلسفة محتومة بدخولها في معارك التاريخ و أبعاده، واستثمارها في رصيد الفكر البشري، وأبعاده السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والانثربولوجية، والاستثمار في انجازات الروح البشرية، مما يعني أن المعركة التي يتعين على الفلسفة أن تخوضها مع الايديولوجية، لا تهدف الى الغلبة أو ترجيح كفة ما على أخرى، أو مجرد استتباع و استقراء كرونولوجي، وإنما تهدف الى تحرير الفكر الفلسفي من هيمنة الايديولوجية والى تحرير الفكر الفلسفي والتاريخي من الاستثمار الايديولوجي. (نصار ، 1986، صفحة 09) و لقد ماتت الفلسفة في فترات تاريخية ما، عندما أسقطت من أجندتها وحساباتها التحليلية الزمان والتاريخ، بحيث كان العقل البشري في مراحل تفلسفه، في علاقة مباشرة بالمجرد والالانهائي غاضا الطرف عن الأطر الزمانية وتفاعلاتها. لقد كان "كانط" مدركا تماما لحقيقة ((أن هذا المسار الأبله للأمور البشر)) يبدو على السطح وكأنه خال من أي نمط معين، وأن التاريخ البشري يبدو وكأنه مجرد سجل لحروب ووحشية مستمرة. ومع ذلك

فهو يتساءل عما إذا كان ثمة حركة منتظمة في تاريخ الانسانية، بحيث أن ما يبدو من وجهة نظر فرد واحد، حالة من الفوضى، قد يكشف عن تطور بطيء مطرد، وأن الطابع التراكمي للمعارف يؤدي الى نشوء المنظومات المعرفية المتنوعة. (فوكوياما ، 1993، صفحة 67)

كما ماتت الفلسفة، عندما انفصلت عن وعينا بالتاريخ، بخلاف "كانط" الذي كان يرى أن للتاريخ مساراً معقلاً وهدفاً نهائياً وله نهاية، بناء على الامكانيات المتاحة للإنسان، فالسعي الى تحقيق الحرية، ودستور مدني كامل للعدالة، هما أسمى معضلة، سيكونان المعيار الذي يتيح لنا فهم التقدم في التاريخ، والآليات التي يسلكها العقل من خلاله. (فوكوياما ، 1993، صفحة 67)

لقد هبت أعاصير عاتية على الفلسفة والتفلسف في حقب تاريخية متباينة، لكن رغم هذا لقد استطاع البحث الفلسفي أن يستعيد عافيته. كان الحدث الأكبر مع الفيلسوف الألماني "هيجل" الذي أرجع للفلسفة والتاريخ مكانتهما، حيث أصبحت الفلسفة والتاريخ وجهان لعملة واحدة، بل مندمجان في مسار تناغمي متداخل، كتداخل الجسد والروح، حيث أصبح للتاريخ روحاً تستعمل الأبطال والشعوب، والحضارات والحروب كوسائل لتجسيد رسالتها. حيث صاح "هيجل" يوماً، بأن ها هي روح التاريخ تمتطي صهوة جوادها في وصفه لـ "نابليون بونابارت" عندما دحر الجيوش البروسية في معركة "بيننا" سنة 1806م. وهكذا تجسدت العلاقة الأبدية الاندماجية بين الفكر أو الفلسفة والتاريخ وتداخلهما الأبدى (حنفي ، 1987، صفحة 275).

1 - ضبط مفهوم التاريخ وفلسفته:

التاريخ كعلم أو فلسفة عرف عدة تعاريف، تباينت من ثقافة الى اخرى، فمفهوم علم التاريخ وتعريفه تعددت، بتعدد المدارس والاتجاهات والمشارب، التاريخ بصفة عامة هو حياة الشعوب (الزبيدي، ب س، صفحة 15) ووصف

للحوادث والوقائع الماضية، وتوصيف يسجل مختلف صور التفاعل الانسان مع بيئة المحلية والخارجية في مختلف الميادين الاجتماعية، السياسية، الاقتصادية. بادئ ذي بدء، لفهم واستيعاب مصطلحي علم التاريخ وفلسفة التاريخ يقتضي بالضرورة المنهجية، تحديد مفهوم التاريخ في حد ذاته، حيث يرى بعض الدراسيين للتاريخ عدة منابع ومصادر من الناحية اللغوية. فهناك من يرى أن كلمة (تاريخ) دخيلة الى اللغة العربية من اليونانية واللاتينية (historic) بل حتى من اللغة الأكادية (أرخو) (الزبيدي، ب س، صفحة 16) والعبرية (يارخ) لمعرفة التوقيت والزمن.

وتدل كلمة (تاريخ) على الاعلام بالوقت مضافا اليه ما وقع في ذلك الوقت من حوادث وأخبار (خضر، 1995، صفحة 22) ويعرفه "ابن خلدون": "ان التاريخ أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى " ويعرفه " المقرئزي " الإخبار عما حدث في العام الماضي " (خضر، 1995، صفحة 24).

من خلال ما ذكر آنفا، نستنتج ان المقصود بمبدلوات كلمة (التاريخ) هو دراسة سجل الماضي البشري وتتبع لأحوال البشر. ودراسة الحوادث والوقائع الماضية، وحياة المجتمعات في مختلف الميادين منذ فجر الإنسانية الى يوم الناس هذا. والظروف والأسباب التي اعترت الحياة البشرية، ودراسة أحوال المدن والحواضر والجنس البشري في حله وترحاله، وحروبه ومعاركه وأحواله بصفة عامة.

إن بداية التدوين التاريخي تزامنت وظهور فن الكتابة، منذ بدايات الحضارات الشرقية القديمة، كالحضارة البابلية وكتابتها المسندية، واليمن وسبأ والخط المسماري والحضارة المصرية، والكتابة الهيروغليفية، وما ورد عن أخبار الهند والسند والصين. وإن اختراع الكتابة وتسجيل الأخبار والاحوال على جدران المعابد والمغارات والكهوف واختراع البرديات، كانت بمثابة البدايات الفعلية لتقيد التاريخ البشري وتسجيله.

التاريخ لديه مدلول اصطلاحى مؤداه ضبط الفعل البشرى (الزيدى، ب س، صفحة 16) وبهذا فمفهوم التاريخ والطبيعة مترابطان. والتاريخ عند الألمان هو ذلك الشيء الذي حدث. أما عند الفرنسيين فيعني السرد والقصة والحكاية. أما في اللغة العربية فمدلوله مرتبط بمعرفة الماضي والزمن والتوقيت.

ومن خلال ما تقدم فإن التاريخ فن استرعى اهتمام البشر في تدوين الحوادث والوقائع، وبالتالي أصبح من أهم الميادين الفكرية التي خصص لها البشر مجالا للقيّد والتدوين، والمحافظة على مآثر المجتمع والأبطال والعظماء وصناع التاريخ. فدون حاضره وأعماله وإنجازاته. ولقد كان لمختلف الشعوب والثقافات على مر الأزمان والعصور فضل في هذا الفن، لغرض المحافظة على التراث، وتنوير الشعوب، وتدوين العبر والمواعظ والمآثر السالفة. ولقد كان للشعوب العربية والاسلامية صولات وجولات في مجال التاريخ، الذي كان ينظر اليه باعتباره سجل لتدوين الأحداث والتطور التاريخي وتحديد الواقعة والحادثة بشكل محدد ودقيق (خضر، 1995، صفحة 28 و 29).

2 - فلسفة التاريخ:

ترى فئة من فلاسفة التاريخ ان فلسفة التاريخ، هي جزء لا يتجزأ أمن معظم الفلسفات التأملية، التي تهدف أساسا الى استخلاص العلاقات والقوانين التي تحرك الوقائع والحوادث التاريخية ومسار المجتمعات البشرية، عن طريق استعمال الآليات الفلسفية المنطقية. في حين ترى فئة أخرى، أن فلسفة التاريخ هي فلسفة تحليلية نقدية تهدف الى تحليل الظواهر التاريخية وسبر أغوارها ودواعيها وصوارفها واستخراج شبكة القوانين الموضوعية الدقيقة التي تتحكم فيها. ومنه فان فلسفة التاريخ هي آلية فكرية عقلية تأملية ومنطقية، تحاول تكوين منظور معقلن شامل وكلي حول مسار التاريخ والروح التي تحركه اعتمادا على النقد والتحليل والمقارنة، لضبط حركية التاريخ وكيفية سيره. فالعلاقة بين الفلسفة والتاريخ يتداخل فيها الموضوع والمنهج والوسائل والآليات المستعملة كالفهم والتفسير والتحليل (الزيدى، ب س، صفحة 24 و 25).

- لا شك ان فلسفة التاريخ شأنها شأن الفلسفة وباقي العلوم والمعارف استغرقت ردحا من التطور الزمني حتى تصل الى مرحلة النضج العقلي والمعرفي المسعى العلمي لفلسفة التاريخ هو ايجاد اليات وميكانيزمات لتفسير التاريخ لا يوصفه تركيبة كلية شاملة.

ان الاستقراء التاريخي لمختلف المراحل التي مر بها البحث الفلسفي التاريخي تبين ان البدايات الأولى كانت مع المحاولات الفلسفية القديمة التي ارتبطت بالأسئلة الكبرى: كيف؟ ولماذا؟ والى اين؟ وماهي حقيقة الحياة والوجود؟ وماهي الحياة والموت؟ وما هو مصير الإنسان بعد الموت؟ هل هناك حياة انتقالية ام هناك عدم مطلق؟ وارتبطت هذه الاسئلة بإنسان الحضارات الشرقية القديمة وتساؤلاته واستفهاماته الممزوجة بالخرافة والأسطورة والكهانة والعرافة. غير أن البدايات الفعلية حسب بعض مؤرخي التاريخ الفلسفي - يرجعونها إلى القديس "أوغسطين" في كتابه "مدينة الله" الذي حاول إيجاد تحليل علمي وفكري وروحي للكيفية أو الآلية التي تحصل على النموذج السياسي الراشد والناجح لتدبير دولة ومجتمع روما؟ واستند "القديس أوغسطين" في تحليلاته الفلسفية الى مرجعية دينية متداخلة مع الفلسفة. ولهذا يعتبر أول الشخصيات الفلسفية للتاريخ التي حاولت إيجاد تفسيراً فلسفياً دينياً للتاريخ.

بخلاف ما سبق يرجع البعض، أصل المصطلح الى عصور متأخرة، كانت بداياتها مع المفكر الفرنسي "فرانسوا فولتير" الذي استعمل مصطلح (فلسفة التاريخ) في احدى مقالاته الموسومة بـ "التأملات الفلسفية في تاريخ الإنسانية (الزبيدي، ب س، صفحة 25 و 26).

لقد حاول "فرانسوا فولتير" إعطاء تفكيراً فلسفياً تاريخياً، يقوم على التحليل والنقد والمقارنة، والبعد عن التفسيرات اللاواقعية والروحية التفويضية والتجرد بقدر الامكان من الأهواء والعواطف والتفسيرات السطحية. الى جانب هذا هناك من يعتقد ان المؤرخ وفيلسوف الحضارة "جون باتيستا فيكو" كان الرائد في إرساء فلسفة للتاريخ والتفسيرات الفلسفية العقلية والمنطقية للتاريخ،

من خلال تفسيره اللولبي للتاريخ، علاوة على خدمات "جيوهان هيردر" الألماني الذي يرى أن للتاريخ قوانين خاصة مثل قوانين الطبيعة (الزيدي، ب س، صفحة 26).

ولقد كان للفيلسوف الألماني "هيجل" الأثر الجلل في العصر الحديث من خلال المحاضرات والدروس التي كان يلقيها في جامعة برلين، وفي إرساء قواعد فلسفة التاريخ والآلية الجدلية المثالية، التي بين من خلالها، أن التاريخ هو مسار صراع حامي الوطيس لأجل الحرية والتقدم والتجسيد الفعلي لمفهوم الدولة (المرجع نفسه، نفس الصفحة).

ويعتبر "ابن خلدون" من أهم الشخصيات العلمية والتاريخية التي تركت بصماتها في مجال التاريخ. بل هناك من اعتبره "مونتسكيو الشرق" ويعد "ابن خلدون" أكبر ناقد للتاريخ ومنهاجه، وأكبر مؤسس للمنظومة المنهجية للتعامل مع الحوادث والوقائع التاريخية. ولقد كان يميز بين المنظور الظاهري والباطني الحقيقي للتاريخ. ويعتبر أول من تحدث عن التفسير العلمي والمنهجي للتاريخ القائم على السببية والحتمية والقانون (الزيدي، ب س، صفحة 26).

3 - غايات وأبعاد فلسفة التاريخ:

الخصائص العامة الشمولية، الكلية، الفهم والتحليل والمقارنة هي نفس المواصفات التي تحمل على البحث الفلسفي التاريخي ومنه فلسفة التاريخ لها غايات مهام تتمثل فيما يلي:

- الفهم الكلي الشامل للحوادث التاريخية ومسار التاريخ، بالنظر إليه من خلال الأبعاد الثلاثة: الماضي، الحاضر، المستقبل وتحديد مدى تفاعلها في صنع الحادثة التاريخية (الزيدي، ب س، صفحة 27 و 28).

- التفسير العميق ظاهريا وباطنيا وماديا وروحيا.

- التجريد والتعميم في استخراج النظريات النسقية العامة في تحديد تحولات التاريخ وصيرورتها.

- ربط التاريخ بالأبعاد الثقافية، الروحية، السياسية والتربوية لإيجاد نظريات متكاملة لتفسير علاقة التأثير والتأثر بين التاريخ ومختلف الميادين الفاعلة.

4 - مفهوم الايديولوجية وتعريفاتها :

أ - لغة: هي كلمة: مصطلح دخیل الى اللغة العربية مؤلف من مقطعين: ايدو بمعنی: الافكار. ولوجيا: بمعنی دراسة او علم. ومنه فالایدولوجية: هي علم او دراسة الافكار.

ب - اصطلاحا: يعرفها "لوي التوسير" بأنها: "نسق من التمثلات، يتمتع داخل مجتمع ما .بوجود ودور تاريخيين. وهي تنتمي الى منطقة الوعي وعلاقة المعاناة التي تربط الناس بعالمهم" (سبيلا و بن عبد العالي، 2006، صفحة 08 و 09) وتعرف الايديولوجية بأنها مجموعة منظمة من الأفكار وهي تعني: علم الافكار في أصلها الفرنسي. وتحمل الايديولوجية عدة مفاهيم منها يلي:

- في مجال السياسة: يتحد مفهوم الايديولوجية في مجال السياسي بمدى فعاليتها باعتبار تمثل عقيدة تتضمن معاني وطنية سامية تقوم على الاخلاص والوفاء والتضحية ويرى في ايدولوجية الخصوم أقنعه تتستر ورائها نوايا خفية.

- في المجال الاجتماعي: تتحد الايديولوجية بأفكار والاعمال والنسق والاعتقاد والفكري للأفراد والجماعات بتفاعلهم الواعي واللاوعي حيث يتفق جميع اعضائه في الولاء لقيم مشتركة ويستعملون منطقا واحدا (العروي، 2012، صفحة 09).

- هناك مفهوم عام ومشارك يتداخل فيه الجانب السياسي والاجتماعي والبيئي والثقافي (العروي، 2012، صفحة 11).

بحيث يحوي مفهوم الايديولوجية مجموعة من الأبعاد تعبر عن المشهد العام في مختلف تجلياته: السياسية، الاجتماعية الثقافية، البيئية، بحيث تتداخل كل هذه الميادين لتعبر عن منظور متكامل و مشترك يحدد النسق العام لتوجه مجتمع ما .أو ثقافة ما .

ومن خلال مما سبق تبين أن مفهوم الأدلوجة مفهوم مزدوجا وصفيا من جهة، ونقديا من جهة أخرى، بمعنى مفهوم ايجابي مستحسن ومفهوم سلبي مستهجن ينم عن النظرة الريبية غير الواثقة في نوايا الخصوم (العروي، 2012، صفحة 12).

على غرار ما سبق يتحدث "عبد الله العروي" على عدة مفاهيم متداخلة ومتشابكة، حيث يبين أن الأدلوجة معنى رؤية كونية نظرا لكونها تحتوي على جملة من التصورات والمفاهيم والأفكار والمنظومات القيمية حول الكون والمجتمع. وهي تستعمل في اجتماعات الثقافة لإدراك دور من أدوار التاريخ وهي بالرجوع الى التاريخ (العروي، 2012، صفحة 14).

الى جانب ما ورد أعلاه، نجد تعاريف متنوعة للإيديولوجية أو علم الافكار أو الفكرانية، حيث يشير "ريمون آرون" في "أفيون المثقفين" الى وجه ممن ظاهرة أعم، تهم من بين ما تهم علم النفس المرضي والطابع المتمركزي للإيديولوجية حول الأنا، ما هو الا النتيجة المنطقية لدورها كأداة كفاح. أو لوحة فكرية متجانسة. ومنه فالإيديولوجية منظومة من الأفكار المرتبطة اجتماعياً بمجموعة اقتصادية أو سياسية أو عرقية أو غيرها

(سبيلا و بن عبد العالي، 2006، صفحة 18 و 19).

إن الحديث عن الايدولوجية هي مرتبط ارتباطا وثيقا بالفلسفة من جهة، والتاريخ من جهة أخرى، نظرا للعلاقة المفصلية التي تشدهما. فلا يمكن أن نتصور الايدولوجية بمعزل عن الفلسفة والتاريخ، وتاريخ الفلسفة وفلسفة التاريخ.

من وظائف الايدولوجية التجمع حول مشروع او فلسفة معينة. والتبرير لمختلف الاقوال والتصرفات في مختلف الميادين. الى جانب تبطين النوايا والغايات والمصالح. علاوة على التعيين لمختلف الخيارات والقرارات. وأخيرا تحوير الادراك وتحديد مرجعية تبريرية (سبيلا و بن عبد العالي، 2006، صفحة 52 و 53 و 54).

وخلال ما سبق يتبين لنا، وجود علاقة وثيقة ومتداخلة بين الفلسفة و التاريخ و الإيديولوجية الى درجة لا يمكن فصل احدهما عن الآخر في تكوين منظومة فكرية او فكرانية متكاملة.

إن الاستقراء الكرونولوجي والتكويني حول مفهوم الايديولوجيا، يبين أن أول استخدام للإيديولوجيات كان من قبل " دستوت دتراسي" Destutt Detracy (1754- 1836). وهي مصطلح مركب من مقطعين: Idea - فكرة - Logos بمعنى علم أو دراسة. والهدف من المفهوم الجديد: ان الايديولوجيا تحل محل الميتافيزيقا و المرجعية الدينية المسيحية، التي استهدفتها الثورة الفرنسية سنة 1789 م، تحت شعار: "اشنقوا أول ملك بأمعاء آخر قسيس" والمراد منها (اي الايديولوجية) هو القضاء على الاقطاع والحكم الكنسي. ويعرفها "دي تراسي": الايديولوجية: "هي العلم الذي يرمي الى دراسة الافكار على أنها وقائع وعي، ويكشف خصائصها وقوانينها وعلاقتها بالإشارات التي تعبر عنها (صعب، 1997، صفحة 39 و 42) ". وكان هدف مشتغلي هذا العلم، هو تأسيس علم الأفكار، بدراسة وفهم وتحليل وتمحيص الافكار والمفاهيم بمختلف انواعها. وحتى يتسنى لهم الارتقاء الى مستوى من الدقة واليقينية والمصادقية المعرفية العلمية، لمختلف الافكار المتداولة وخاصة المجردة والروحية منها.

ومن أهم التعاريف -على غرار ما ذكر سلفا - الايديولوجية: هي نظام من القيم والمعتقدات بشأن مختلف مؤسسات المجتمع، التي يتم قبولها كحقيقة من خلال مجموعة من الناس. كما يعرفها آخرون: "بأنها مجموعة من العقائد والافكار والتصورات والمشاعر والتقاليد والآمال والظروف الزمانية المكانية، التي تؤثر في أنماط السلوك للأمة والجماعة".

في حين يحدد لها "كارل مانهايم" 1893 - 1947. معنيين للإيديولوجيا وهي المعنى الجزئي الذي مضاده: الموقف المتشكك من افكار وتصورات الخصوم، والمعنى الكلي الذي مؤداه: توضيح سمات وخصائص تركيب البناء الكلي لعقلية هذه الجماعة (مانهايم ، 1980، صفحة 129).

وبالتالي فالمراد من مصطلح الايديولوجيا، تحديد المبادئ والخصائص والمميزات التي يتميز بها، اطار فكري لبيئة ثقافية او اجتماعية، الذي تتكلف النخبة المفكرة او الانتليجانسية بترويجه وتبريره، والذي يتجسد في التوجهات الضمنية او الصريحة لعموم الجماعة التي تتبني هذه الأفكار و تقتنع بها بل تصل الى درجة التضحية من أجلها في أحيان أخرى.

ج - إشكالية نهاية الإيديولوجيا:

كل من "فرانسيس فوكوياما" و" صامويل هنتجتون" يتحدث عن نهاية الايديولوجية مع سقوط الايدولوجية الشيوعية. والانتصار السياسي والاقتصادي والحضاري للإيديولوجيا الليبرالية. ولكن وقبل هذا، سبق أن أعلن " هابرماس " ان الافكار والايديولوجيات انحصر مجالها وضاق، حيث أصبحت التقنية والعلم يأخذان في زمننا، وظيفه شرعية السيطرة (هيبرماس ، 2003 ، صفحة 45 و 55).

لقد قامت دعوات لفلاسفة ومفكرين وسياسيين من خلال مؤتمرات ومؤلفات بنهاية عصر الايديولوجيا. بسبب التقنية والتكنولوجيا ونهاية الصراعات السياسية والحروب. وإحلال الأحادية مكان الثنائية القطبية. وبنهاية الحرب الباردة بين المعسكرين (الشرقي والغربي) وتلاشي الصراع المحموم، ما بين الاشتراكية والرأسمالية، وسقوط جدار برلين. كلها أسباب وعوامل عملت على تسريع نهاية الايديولوجيا.

ولكن مهما يكن، من أدلة وبراهين على نهاية الايدولوجية. فهناك الكثير من الطروحات والتحليلات والدراسات. ترى بالرغم من، التقدم الصناعي والعلمي والتكنولوجي. لم يقض على الايديولوجيا. بل عمل على تأسيس منظومات ايديولوجية جديدة. تقوم على مرجعيات تقنية واقتصادية. كالشركات المتعددة الجنسيات، العولمة والأمركة.

ب - القراءة الايديولوجية للتاريخ واستعمالاتها:

المقصود بالقراءات الايديولوجية للتاريخ: هي جملة التصورات والنزعات الفكرية والفلسفية والسياسية وغيرها، التي تستعمل أو توظف التاريخ ومفاهيمه وآلياته لإضفاء طابع المصداقية لأنساقها المفاهيمية والتبريرية، لبناء فكري أو فلسفي أو معرفي أو سياسي معين.

ومما لا ريب فيه ان الايديولوجية نوع من انواع الفكر العقيدي. غير أنه يستند مرجعيا الى التاريخ وحوادثه ووقائعه وأفكاره. فنظرا للتداخل بين الحقائق التاريخية والاجتماعية والفكرية (نصار، 1986، صفحة 159).

إن تموقع الايديولوجية بالنسبة للتاريخ بمثابة حجر الزاوية في بنية الفكر التاريخي الذي يتحدد بوظيفتين:

أولاً: ليس من مهام الايديولوجية تطوير الوعي التاريخي وتنميته، بخلاف دور العلم والفلسفة.

ثانياً: النظرة الايديولوجية للتاريخ تعبر عن منظور جمعي للمجتمع أو لفئات كبيرة للشعب. تمتزج بالحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية، أكثر من النظرة العلمية والفلسفية التي تنحصر في فئة اجتماعية مثقفة (نصار، 1986، صفحة 190). ومهما يكن فإن العلاقة بين الفلسفة والايديولوجية أحد المحاور الرئيسية في الاهتمامات الفكرية الراهنة، بحكم الأهمية القصوى للإيديولوجية في توجيه وترشيد الرأي العام والانتليجانسية، والفئات العريضة للشعب والمجتمع، الذي يقتضي حد أدنى من القنوات الفكرية. التي تحدد بناء أو تركيبة توجيهية للعقل والسلوك على حد سواء.

فلو أخذنا على سبيل المثال، لا الحصر، الايديولوجية الليبرالية أو الاشتراكية. لكل جملة من المبادئ والمرجعيات التي من خلالها تحدد الإطار الفكري والمفاهيمي النسقي، المبني على ترتيبات منهجية ومنطقية، تكون في نهاية المطاف المنظومة العقلانية، التي تربط مختلف الميادين: السياسة، الاقتصاد، الثقافة، الفكر، التربية، والمبررات التي تربط كل ميدان بالآخر وفق منهجية محددة وسلسلة.

الايديولوجية: أو بالأحرى القراءات الايديولوجية لها، أهمية كبيرة في فهم وتفسير التوجهات العامة للفكر والتاريخ الانساني بغض النظر عن مرجعيتها ومشاربها ومنطلقاتها. ومما هو جدير بالذكر في هذا السياق ان الايديولوجية والفكر التاريخي يختلف على ثقافة الى اخرى ومن بيئة الى أخرى. فالإيديولوجية والفكر التاريخي، يختلف في الثقافة العربية والاسلامية، تختلف في طرق وآليات التعاطي والتفاعل. إلا أن هذا يزيد من اهتمام الفكر الانساني بضرورة الاهتمام المتزايد بالدور التحليلي والنقدي للتصور الايديولوجي للتاريخ مجالات استعمالاته (نصار، 1986، صفحة 162).

الخصائص النظرة الايديولوجية للتاريخ ترتبط ضمناً مع المميزات العامة للفكر الايديولوجي. فمن المميزات العامة: الميزة الجماعية والابعاد السوسيولوجية للنظرة الأيديولوجية (نصار، 1986، صفحة 165 و 166). الى جانب خاصية التبرير والتعيين والتوظيفات الموجهة والعملية. ولما كانت السياسة بطبيعتها تهتم بحفظ الأمن والتلاحم الداخلي والتعبئة العامة، وحفظ الامن العام والسكينة العامة. فهي تستند بشكل أساسي الى الوعي الايديولوجي الموجه، الذي يستعمل الفكر والتاريخ في بناء وتوجيه وترشيد الضمير الجمعي ووعي الشعوب.

لقد كانت للإيديولوجية أهمية قصوى، وخاصة في ظل الايديولوجية الماركسية في ربط الواقع المادي والاقتصادي، بأشكال الوعي الايديولوجي والبناء الفوقي (جعفر عبد الوهاب، 2014، صفحة 237). الذي يحدد مختلف المنظومات السياسية، الفكرية، الثقافية، التعليمية والتربوية. التي توظف في تحديد المسارات الأساسية للوعي الجماهيري.

1 - استعمالات القراءات الأيديولوجية:

يرى "عبد الله العروبي" في كتابه: "مفهوم الأيديولوجيا" هناك خمسة استعمالات رئيسية لمفهوم الأيديولوجية:

أولاً: تعني الأدلوجة: الأفكار المسبقة الموروثة عن عصور الاستعباد والجهل والاستغلال يضاف في هذا الاستعمال الوعي أو العقل الكاشف عن الحقيقة. ثانياً: استعمال الفلاسفة الألمان، خاصة التيار الهيجيلي الرومانسي. حيث تعني الأدلوجة منظومة فكرية تعبر عن الروح أو اللوغوس الذي يسعى الى تحقيق رسالة معينة.

ثالثاً: الاستعمال المادي والماركسي، حيث ان الايديولوجية هي المنظومة الفكرية التي تنعكس بنية النظام الاجتماعي. فالبنية التحتية هي التي تحدد البنية الفوقية للوعي.

رابعاً: الاستعمال النيتشوي الذي يرى ان الايديولوجية هي مجموع الاوهام والتعليقات والحيل التي يعاكس بها الانسان الضعيف قانون الحياة. خامساً: استعمال فرويد سيجمند، الذي يعتقد أن الأدلوجة هي مجموع الأفكار الناتجة عن التعاقل الذي يبرر السلوك المعاكس لقانون اللذة.

وما هو يلاحظ خلال استعراض الاستعمالات الخمسة: التمايز واللا تجانس في توصيف الأدلوجة بين (التقليد، الروح، بنية، وهم، تعاقل) وتختلف ايضا من ناحية المنطلقات المرجعية (عقل فردي، تاريخ عام، مجتمع انساني، حياة، حيوان) (العروي، 2012، صفحة 129 و 130).

2 - الأيديولوجية رؤية كونية أم واجهة لخلفية مرجعية ؟

مما هو جدير بالتنويه، أن الفكر الأيديولوجي فكر جماعي أو نظرة جماعة بشرية تتربط بمصلحة جماعية كالايديولوجية القومية. وبالتالي هي تفكير جماعي انحيازي انتقائي يقوم على منطق التفسير البشري، مستعملا التاريخ ومقولاته. والفكر وقوالبه. والتبرير من هذه الناحية هو استرجاع انتقائي للماضي بحثا عن تبرئة الجماعة من أي اتهام، أو توجيه السهم للخصم. وهو يتحرك بين الحاضر والماضي، كما أنه فكر أو عملية إسقاطيه، على غرار استعماله للعبارة، والنموذج الامثل الذي يمثل الحكمة العملية التي يسعى العقل

أو الفكر الايديولوجي من استخراجها من تجارب الماضي (نصار، 1986، صفحة 165 و 171).

(أ) ماركس والمصلحة الطبقية:

يرى "ماركس" ان الايديولوجية ترتبط بمصالح الطبقات، خاصة الطبقة البرجوازية. وحتى يتسنى تحويل هذا، يقتضي تغيير الظروف المادية والاقتصادية المرتبطة بالنشاط الاقتصادي، والقوي العاملة. ويستعمل "ماركس" كلمة مصلحة في معنى خاص، لا يعني بها مصلحة الفرد بل يعبر بها عن قوى كامنة في بنية العلاقات الانتاجية تكشفها الممارسة (العروي، 2012، صفحة 42)

(ب) نيتشة وغل المستضعفين:

من خلال كتابه ذائع الصيت "هكذا يكلم زرادشت" يعبر "نيتشة" عن فلسفة القوة باعتبار الاخلاق قيد أبدعه الضعفاء لتكبير وتصفيد الأقوياء وكان يدعو ويبشر بالقوة والقسوة. ويحتقر ويحط من أخلاق الشفقة والرحمة (العروي، 2012، صفحة 46).

ولقد كان لكتاب "هكذا تكلم زرادشت" وكتاب "جينياالوجيا الأخلاق" للفيلسوف "فردريك نيتشة" دستور الأقوياء والعنصريون النازيون، واستثمره "هتلر" في بناء روح النازية واختلاق ما يسمى بالمواطن النازي الخارق والممتاز والتميز

ج - فرويد ومنطق الرغبة:

يقيم "فرويد سجيند" ايديولوجيته على الرغبة الجنسية والقوى الرئيسية للنفس البشرية كالهو، والأنا والأنا الأعلى. معبرا بقوله: علينا نحن بني الانسان ان لا نهمل الجانب الحيواني في طباعنا. وبالتالي فان الرؤية الفرويدية الايديولوجية ماهي الا أهام تصورها لنا رغبتنا المكبوتة في الهو أو الجانب الحيواني. هذا الأخير الذي يكون مراقب باستمرار من طرف الأنا الأعلى.

د - مانهائم والايديولوجية السياسية:

يرى "مانهائم" ان للايديولوجية اثر كبير في عالم السياسة والاجتماع والثقافة (العروي، 2012، صفحة 51 و 61). وهو يفرق بين الايديولوجية والطوباوية. فمهما ادعت الايديولوجية (اشتراكية أو ليبرالية من مبادئ سامية) فهي لا تعبر في نهاية المطاف، الا عن مصالح فئة سياسة معينة.

ج - جانب من الأطروحات الفلسفية المفسرة لإشكالية هذه النهاية التلازمية:

1 - هل هو تسارع أم نهاية للتاريخ أم تقارب لسيرورة الزمن و صيرورته؟

قال "هيجل" يوما " رأيت الإمبراطور -روح العالم - يخرج من المدينة في مهمة استكشاف إنه بالفعل إحساس رائع، أن أرى مثل هذا الشخص ممتمطياً حصانه فوق العالم ويسيطر عليه". وكانت هذه المقولة توصيفا للإمبراطور "نابليون بونبارت" في معركة "يينا" سنة 1806م.

إن شخص "نابليون" ما هو إلا وسيلة لتجسيد روح التاريخ والعقل والفكر التنويري والثورة الفرنسية. بهذا أعطى دفعا لعجلة التاريخ وتسارعه. لقد لمح "هيجل" الى حقيقة التسارع في صياغة عقلانية مثالية نظرية. إن المراد بالتسارع هو تداخل مجموعة من العوامل: منها الثورة التكنولوجية وطغيان الفكر الليبرالي الفيزيوقراطي وانحطاط منظومة الحوار والتضامن لصالح نزعة القوميات والهويات، وانتصار الديمقراطية الليبرالية.

إن نظرية نهاية التاريخ تهاجم تسارع التاريخ. ومن خلال إطلاق اسم التسارع على الحركة الماضية، في حين هو الحركة المنتظمة للتاريخ باعتباره تحقيقا ذاتيا للعقل. فحسب المفهوم الهيجلي، فالتسارع كمركز لنموذج غيبي، يدعو لنهاية تاريخ بلا نهاية. ويمكننا التساؤل حول إمكانية توصل الوعي الى المعرفة المطلقة، ووجود إمكانية للتنبؤ التاريخي (روكوت، 1992، صفحة 94 و 95).

الوحيد الذي كان نداً لهذا التساؤل: هو "كارل بوبر" الذي وضع للبحث العلمي والفلسفي خطوطا، تسري على العلم كما تسري على حركية التاريخ

وقدرته على التنبؤ بالمستقبل. ولقد تميزت افكار "بوبر" بالثورة في المفاهيم و المناهج، عندما أرسى منهجه النقدي المتعلق أساس بمدى المصادقية العلمية لمنهج الاستقراء ومدى توازنه بين مبدأ التصديق من جهة ومبدأ التكذيب من جهة أخرى. ولقد وضع جملة من القواعد في هذا السياق للاختبار المنصب على الاستقراء الى درجة التصريح بمقولته المشهورة: "نحن لا نعرف بل نخمن".

2 - هل هي تلازمية نهاية التاريخ أم انقلاب ضد التاريخ:

في منتصف القرن 20، وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية، كان الصراع الايديولوجي بين الاشتراكية والليبرالية في أعلى مستوياته، بحيث أصبح شبح الشيوعية يقلق على العالم الحر. ولقد علل "فوكوياما" نهاية هذا الصراع الايديولوجي في الربع الأخير من القرن المذكور. بسقوط الايديولوجية الشيوعية، بالنقطة النهائية للتطور الايديولوجي للبشرية، وتعميم الديمقراطية الليبرالية الغربية كشكل نهائي للحكم البشري.

إن أمام القرن 21 الروسي، يمكن -كما يعتقد "فوكوياما" تأنيا للتاريخ وتاريخا بعديا. فبعد سقوط الايديولوجية الشيوعية أمام الديمقراطية الليبرالية، خرجت الأفكار والمفاهيم من سياقاتها الأصلية، بحيث لم يصبح الصراع الطبقي كمحرك للتاريخ في المنظور الجيل الروسي ما بعد الانفتاح. وهامهم يندلفون الى استعادة ماضيهم القيصري وشعاراته واسمائه وعاداته. حتى كلمة ثورة فقدت معناها؟ (سايدز، 1986، صفحة 116 و 118).

ومع تقدم هذا الفتور التاريخي كما يرى "دي توكفيل" يرافق انتصارات الديمقراطية، وتتكاثر على العكس الاضطرابات المعبرة عن رغبتها بالتاريخ في مجتمعات أخرى من العالم. كالعالم النامي، هذا الاخير الذي يعتبر أن الأزمت التي أنهكته لا تعبر إلا عن أزمت العالمين الآخرين.

إن سقوط الايديولوجية الاشتراكية وانتصار الديمقراطية الليبرالية، ما هو إلا انقلاب للتاريخ، بل اعتباره نهاية للتاريخ، بل بالعكس قد يعتبر نقطة بداية جديدة للتاريخ في عوالم عانت وأنهكت من الصراعات الايديولوجية للقوى

والايديولوجيات الكبرى في العالم. فنهاية الحرب العالمية الثانية، كنت حدثا مفصليا لحقبة شهدت تطاحنا وصراعا ايديولوجيا محموما بين القوى الشرقية والغربية، ولقد ساهم هذا الأمر في تسريع العجلة التاريخية، ليس على مستوى الشرق والغرب، بل حتى على مستوى العوالم الصغرى التابعة لها، والتي كانت تتحمل التبعات الفكرية، الثقافية، السياسية والاقتصادية. مما جعل هذه العوالم متورطة ضمنا.

3 - هل يمكن تفريغ الفلسفة من الايديولوجية للحيلولة والنهاية التلازمية الشرطية:

لقد كان موضوع تفريغ الفلسفة من الايديولوجية من المواضيع المحورية لدى الفلاسفة وعلم الاجتماع ومفكرين سياسيين، هذا الموضوع الذي يرتبط بمسألة العلاقة التلازمية بين الايديولوجية والفلسفة (فاديه ، 2006 ، صفحة 102).

حيث ترى فئة من الفلاسفة أنه لا يتسنى للفلسفة الحديثة النجاة، إلا عن طريق تحريرها من الايديولوجية تماما، وتستند هذه الفئة الا تبرير عقلائي ناتج عن التقدم العلمي والتقني بحكم نهاية الايديولوجية، بخلاف توجه آخر، يرى أن تفريغ الفلسفة من الايديولوجية هو حل تناقضات بين الرأسمالية والاشتراكية والصراع الفكري الايديولوجي بينهما.

إن الايديولوجية في نظر "ماركس" مجرد "وعي زائف" لأنها لا تغير عن المعطيات الواقعية بشكل واضح ومحدد، بل هي تمييع للواقع. إن الاستغناء عن الفلسفة أمر غير ممكن، لكن بخلاف ذلك يمكننا الاستغناء عن الايديولوجية، نظرا لكونها المسبب الرئيسي للاختلافات الفكرية.

الى جانب هذا، هناك تيار من الفلاسفة. يرى بضرورة تواجد الايديولوجية بجانب الفلسفة، لأن التعارض والتناقض قانون طبيعي ووجودي لا يمكن الاستغناء عنه بأي حال من الأحوال (فاديه ، 2006 ، صفحة 103).

ومنه يجب الاستغناء عن التفريغ الايديولوجي، بحكم أن الايديولوجية هي التي تعطي الحيوية والاستمرارية للفن والثقافة والفلسفة بحكم والعلوم الاجتماعية برمتها. وبالتالي تعزز من امكانيات التصدي للإيديولوجيا التي تشكل خطرا على المنظومات الفكرية والحضارية التي نتبناها وندافع عنها ونقتنع بها (فاديه ، 2006، صفحة 103).

اذن مسألة تفريغ الفلسفة والفكر من الايديولوجية، امر خلافي، يتراوح بين رافض له رفضا تاما، وبين من يستحسنه، بل يراه من الأمور الضرورية، بحيث لا يكون للفلسفة روح وحيوية، دون وجود منظومة ايديولوجية توجهها وتدعمها. إن الايديولوجية القائمة على أساس علمي رصين، والقوانين الموضوعية، لها انعكاسات ايجابية على المنظومة العلمية والمصالح البشرية، بل تدفع بدواليب التقدم العلمي الاجتماعي قدما. ومن الضروري على الايديولوجية الحرص الشديد على الأساس العلمي والتزود بالإنجازات العلمية (فاديه ، 2006، صفحة 104 و 105).

المتطورة باستمرار، حتى يتسنى لها تقديم خدمات معرفية وإنسانية وروحية للجنس البشري.

في حين إن التجاهل المقصود للقوانين الموضوعية لتطور الواقع من طرف الايديولوجية، واكتفاء هذه الأخيرة بمجرد الحرص على المصالح التي تخص فئة معينة أو طبقة معينة، لاريب يؤدي الى نتائج سلبية. وبالتالي فهي تسبح ضد التيار التقدم العلمي والقوانين الموضوعية التي تسير الواقع. وعليه نجدها تخوض صراع -في هذه الحالة -مع الآليات الموضوعية. وعليه يكون الخروج عن الجادة الصحيحة لمسارها أمرا حتميا.

4 - هل نهاية الايديولوجية الحبلى بالتاريخ والفلسفة، حقيقة أم اسطورة؟

الايديولوجية بصفة عامة هي نظام من التصورات والمفاهيم، ومن الصور والأفكار وحتى الأساطير يتميز بخصوصية معينة. فللايديولوجية أثر فعال في منظومة الوعي الاجتماعي وتوجهاته بحكم ارتباطها بالواقع الاجتماعي، بخلاف

المنظومات النظرية التي تتناقض تأثيرا بحكم طبيعتها النظرية حتى ولو كانت علمية (فاديه ، 2006، صفحة 92 و 93).

هناك ظروفات تعتقد بإمكانية الاستغناء عن الإيديولوجية، إذا ما استطعنا استبدالها بالعلم الموضوعي، أو تصبح الإيديولوجية علمية بأي شكل من الأشكال. بيد أن هذا الأمر يتطلب اجتهادات على كافة المستويات والياديين "هنتجتون" على سبيل المثال، يعتقد بإمكانية نهاية الإيديولوجية والصراع الإيديولوجي، بسبب تقوض اركان الإيديولوجية الاشتراكية الشيوعية، وأصبحت الإيديولوجية الليبرالية الواقعية أكثر قبولاً ومصادقية، ولهذا لم يصبح هناك داعي للصراع الإيديولوجي، الذي -في نظره - يحل محله الصراع الحضاري أو الثقافي، الذي تجلى في الهويات الحضارية أو بالأحرى الهويات الثقافية التي تصبح الممثلة أو المجسدة الفعلية للأنما والآخر، ومن نحن و من الآخر ولكن مهما كانت المحاولات الممكنة في هذا الاتجاه، فإن هذا لا يمكن أن يتحقق بسهولة على المدى القريب أو المتوسط. كون الإيديولوجية بناءً أساسياً للحياة التاريخية للمجتمعات، ولا يمكن إنهاؤها باعتبارها أداة واعية للعقل في التاريخ (فاديه ، 2006، صفحة 94).

5 - هل هي نهاية الفلسفة التلازمية و لواحقها أم فلسفة النهايات العدمية الشاملة :

الفلسفة أم العلوم والمعارف حقيقة علمية وتاريخية، نظرا إلى الخدمات الفكرية والمعرفية والعلمية، والتي قدمتها الفلسفة منذ بدايات الحضارة البشرية. إلى درجة وصل بـ "أرسطو" إلى وصفها العلم بالوجود من حيث هو موجود أو معرفة العلة والأسباب القصوى للموجودات، بل هي النظر في الموجودات وأسبابها وعللها بقدر الطاقة البشرية، كما يقول "أبو يوسف الكندي". بيد أن هذا التوقع المعرفي التقليدي السامي للفلسفة، أصيب بضربات قاسية ومتوالية منذ بداية النهضة الأوروبية، وانفصال العلوم عنها تباعا. لكن مهما يكن أمر فإن لبداية القرن 20 والتطور العلمي التجريبي الكبير. المحطة

الحاسمة في طرح الاشكاليات والتساؤلات حول أهمية ودور الفلسفة. إلى درجة الاعلان عن موتها الشبه الرسمي مع المدارس الفكرية الوضعية، بداية مع "أوغست كونت" وصولاً الى الوضعية المنطقية (حلقة فينا) وآراء " رودولف كارناب" و "موريس شليك" والظاهراتي "آرنست ماخ". هذه التيارات التي أعلنت موت الميتافيزيقا. من ثمة انحصار دور الفلسفة في مجرد التحليل اللغوي للمصطلحات العلمية. وهذا ما جعل أحد أقطاب الوضعية المنطقية "رودولف كارناب" يصرح بقوله: بضرورة استبدال الفلسفة بمنطق العلم أي بالتحليل المنطقي لمفاهيم العلوم (الحاج حسن، 2001، صفحة 101).

ولقد كانت للمذاهب الوضعية بصفة عامة، و خاصة الوضعية المنطقية محاولات جادة في سبيل تصيير الفلسفة الى علم وضعي، يتماشى وتطور المعرفة الانسانية نحو العلمية الرصينة، الى جانب الاجتهادات المقدمة من طرف " أوغست كونت" الذي قام بتصنيف العلوم الى العلوم الرئيسية الأساسية وتحويل العلوم الانسانية المرتبطة بالفلسفة الى علوم وضعية، الى درجة تسمية علم الاجتماع بالفيزياء الاجتماعية. ومحاولة ارساء فلسفة علمية لا تؤمن الا بما طابق الواقع وقام عليه الدليل القاطع المبني على التجربة والخبرة.

إن الحديث عن النهاية أو خطابات النهاية، لم ينحصر في التساؤل عن مهمة الفلسفة ووظيفتها تزامنا وتطور العلم التجريبي وسيادة العلم التطبيقي في العصر الحديث، بل تجاوزت هذه المحطة إلى تأسيس خطابات ليس لنهاية الفلسفة فحسب، بل نهاية التاريخ والايديولوجية بل حتى الوجود برمته. وفي سياق الحديث عن فلسفة النهايات، نجد أن خطاب النهاية في الفلسفة يحيل إلى تأسيس ما يسمى بالقيامة الحديثة أو "الأبوكاليبس" كموت الإنسان وموت الايديولوجيا، بل حتى موت التاريخ (بوفلو، ب س، صفحة 18).

ولقد كانت خطابات فلسفة النهاية ممهدات من طرف شخصيات فلسفية ذات ثقل فكري وتاريخي، ك: "ماركس" "نيتشه"، "هايدجر"، "دريدا" وغيرهم. حيث تحدث "مارتن هايدجر" عن نهاية الفلسفة ونهاية الميتافيزيقا كأحد

المباحث الأساسية التي تقوم عليها. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل انتشرت عدوى خطاب النهاية إلى الايديولوجية والتاريخ مع "فرنسيس فوكوياما" ونهاية عصر الايديولوجيا (سبيلا ، الايديولوجية، نحو نظرة تكاملية، 1992، صفحة 200).

من خلال ما تقدم يبدو أن خطاب النهايات في الفلسفة، التاريخ والايديولوجية يبين وجود علاقة تداخل وتلازم بين هذه المعطيات الثلاثة (الفلسفة، التاريخ والايديولوجية) من ناحية النهاية التلازمية مما سيؤدي إلى ظهور مباحث وتخصصات فكرية تتركز بشكل أساسي على دراسة مسائل النهايات واشكالياتها، ضمن منظومة بحثية تسمى بالاسكاثولوجية أو علم القيامة و المسائل الأخروية على كافة المستويات: المستوى السياسي و العلمي وحتى البيوتكنولوجي مع "فرانسيس فوكوياما" على غرار نهاية التاريخ الايديولوجي المصاحب لتحقيق الاعتراف وإشباع الثيموس ونيل الاعتراف.

إن الفلسفة شكل من أشكال الإيديولوجية، هذه الأخيرة تحمل في ذاتها روح فلسفية. مما يعني أن الايديولوجية والفلسفة كلاهما متجدر في الوعي الاجتماعي وتاريخ هذا الوعي، ولهذا يأبى "هيجل" أن يكون تاريخ الفلسفة مجرد سرد لأفكار ذاتية يطبعها الجواز، بل هي العلم الموضوعي الذي يبحث عن الحقيقة. ويلتقي "هيجل" مع "هايدجر" اعتبار تاريخ الفلسفة ليس من صنع الفكريين فحسب، بل من صنع الوجود (بن عبد العالي، 1991، صفحة 41).

6 - هل هي نهاية التاريخ و لواحقه أم هي إيديولوجية تسارع التاريخ وإنعكاساتها:

يقول "كولنجوود" : "التاريخ لا يفترض وجود العقل ككيان سابق له، وإنما هو حياة العقل ذاتها،.... الى الحد الذي تعيش في نسيج هذه العملية التاريخية وتدرّك أنها تعيش فيها (كولنجوود، 1968، صفحة 394).

فلقد كان للفكر الهيجلي في حقول الفلسفة والتاريخ أهمية كبرى منذ نشأته. فالتفسير المثالي العقلاني جسد بصماته في كل المنظومات الفكرية الفلسفية

التي تتحدث عن العلاقة بين الفلسفة والتاريخ وتفاعلهما اجتماعيا سياسيا وزمانيا.

بيد أن الجدل الهيجلي أبى الا الوقوف على رجليه بعد ما كان يمشي على راسه، مع قدوم الفكر الماركسي ذي النزعة المادية في تفسير آليات حركة الوعي والتاريخ والايديولوجية. هذان الاطروحتان اعتمد عليهما صاحب نظرية نهاية التاريخ في تبرير نسقه الفكري والايديولوجي في إعلان نهاية الايديولوجية وانتصار الفلسفة الليبرالية الامريكية في كل ميادين الحياة. غير أن التساؤل: هل نحن بصدد نهاية للتاريخ و لواحقه(الايديولوجية والفلسفية) أم هي توظيف لإيديولوجية تسارع التاريخ وآثره على بقية اللواحق التبعية؟

إن علاقة الانسان بالزمان والمكان تغيرت من زاويتين من ناحية زاوية محيطية الحياتي المعتاد. ومن ناحية قدراته على التنقل. ولقد ساهم التطور التقني والعلمي في تقليص إدراك الانسان للمكان الهندسي، والزمان الطبيعي. فالإنسان الراهن يستقبل عدداً وكماً هائلاً من المعلومات. مما حول الكرة الارضية الى قرية صغيرة، بحيث غير الانسان من مفاهيمه الفكرية والفلسفية وتصوراته حول العالم والكون. وبالتالي فالثورة التكنولوجية والثورة الهائلة في عالم الاتصالات زادت من تسارع الأحداث والحوادث في التاريخ الى اقصى الحدود. إن تضخم الذات يجعلها تستوعب التاريخ فيما يسمى بـ (أنا - التاريخ) والتاريخ الجماعي لن يعود اذ ذلك الا تراكماً. وبالتالي فتسارع التاريخ لن يعود سوى محيط الفرد المستهلك (شابو، 1992، صفحة 119 و 122).

هذا ويمكن النظر الى القضية المطروحة من جهتين: جهة نهاية التاريخ من ناحية، ومن ناحية أخرى تسارع التاريخ، بحكم التداخل بين المفهومين، والسعي لاستجلاء التوصيف أو التحليلي الحقيقي للوضعية الوجودية المطابقة للعقل والواقع، فيما يخص هذه الوضعية.

خاتمة:

من خلال المقال أعلاه حاولنا الاجابة عن العلاقة بين الفلسفة والتاريخ والأيدولوجية، وماهية مفهوم العلاقة التلازمية التي تربط بينهم، وتبين أن هذه العلاقة التلازمية مرتبطة بسياقات التداول المفهومي والتصوري حسب التيارات والنظريات الايدولوجية والفلسفية من ناحية ومن ناحية أخرى حسب المرجعيات الثقافية والسياسية.

ومن أبرز النظريات المعاصرة التي تمثل نموذجا لهذه الاستعمالات وتعبر عن هذه العلاقة المتداخلة بين الفلسفة والتاريخ والأيدولوجيا، نجد "نظرية نهاية التاريخ والانسان الأخير" للمفكر والفيلسوف السياسي الأمريكي "فرنسيس فوكوياما"، ومختلف النظريات التي تصب في توجه فلسفة النهايات ونظريات الأبوكاليس الفلسفي والأيدولوجي والتاريخي .

قائمة المراجع:

- أفلاطون). د.س. (الجمهورية، تعريب حنا خباز. لبنان: دار القلم.
- الحاج حسن، و. (2001). ردولف كارناب ونهاية الوضعية المنطقية. المغرب: المركز العربي.
- الزبيدي، م. ب.س. (المدخل الى فلسفة التاريخ. عمان، الاردن: دار المناهج للنشر والتوزيع.
- العروي، ع. (2012). مفهوم الايديولوجيا. الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي.
- بن عبد العالي، ع. (1991). أسس الفكر الفلسفي المعاصر - مجاوزة الميتافيزيقا. الدار البيضاء: دار توبقال للنشر.
- بوبر، ك. (1992). بؤس الايديولوجيا. بيروت، لبنان: دار الساقى.
- بوفلو، م. ا. ب.س. (نهاية الفلسفة. القاهرة، مصر: مركز الانماء القومي.
- جعفر عبد الوهاب، ع. (2014). في فلسفة التاريخ. الاسكندرية، مصر: دار الوفاء للطباعة و النشر.
- حنفي، ح. (1987). دراسات فلسفية. القاهرة: مكتبة الأنجلو مصرية.
- خضر، ع. ع. (1995). المسلمون وكتابة التاريخ. المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
- روكوت، ا. (1992). جانفي، فيفري. (هل هو تسارع أم نهاية للتاريخ. العدد 94-95، p. 106 و 109.
- سايدز، ي. ا. (1986). انقلاب ضد التاريخ. العدد 41، p. 116 و 118.
- سبيلا، م. (1992). الايديولوجية، نحو نظرة تكاملية. بيروت، لبنان: المركز الثقافي العربي.
- سبيلا، م. &، بن عبد العالي، ع. (2006). الايديولوجيا (L. Althusser, Éd.). الدار البيضاء، المغرب: دار توبقال للنشر.
- شابو، ج. (1992). ايديولوجية تسارع التاريخ. العدد 94-95 :
- صعب، ح. (1997). علم السياسة. بيروت، لبنان: دار العلم للملايين.
- فاديه، م. (2006). الايديولوجية، وثائق من الأصول الفلسفية. بيروت، لبنان: دار الفارابي.
- فوكوياما، ف. (1993). نهاية التاريخ وخاتم البشر. مصر: مركز الأهرام للترجمة والنشر.
- كولنجوود، ر. (1968). فكرة التاريخ. القاهرة، مصر.
- مانهايم، ك. (1980). الايديولوجيا واليوتوبيا. الكويت: شركة المكتبات الكويتية.
- محمود زكي، ن. (1980). هموم المثقفين. بيروت، لبنان: دار الشروق.
- نصار، ن. (1986). الفلسفة في معركة الايديولوجية. بيروت، لبنان: دار الطليعة.
- هيبرماس، ي. (2003). العلم والتقنية كأيديولوجيا. سوريا: منشورات الجمل.